يقول /تشين هوان تشانغ/: «إن الأقوال التاريخية لهذا الكتاب ليست إلا رموزاً تهدف إلى توضيح مبادىء كنفوشيوس». أما كنفوشيوس نفسه. فكان يؤكد: كان بإمكاني عرض أفكاري بشكل نظري بحت. ولكن بدا لي أنه من الأفضل تقديمها عبر الأفعال الإنسانية فأصبحت بذلك أكثر حقيقة وأكثر وضوحاً وجلاء». ينتقد كنفوشيوس في هذا الكتاب الأباطرة ويحط من كبرياء الملوك ويهاجم كبار الموظفين، ويصف المملكة المثالية التي تحكمها العدالة، يقول كنفوشيوس إن كتاب حوليات الرباع والخرف سيُعرف بي، وحوليات الرباع والخرف سيجعلني أدان.

المساواة الكبرى:

إن كتاب حوليات الرباع والخرف مثير للاهتمام أيضاً لكونه يكشف الرؤية المستقبلية لكنفوشيوس. فإننا نتعلم منه، على سبيل المثال، أن كنفوشيوس لايعتبر مراسم وطقوس الـ/لي/ إلا كأمور ذات أهمية مؤقتة، ويميز ثلاث مراحل في التطور الإنساني.

في المرحلة الأولى، مرحلة الفوضى، تكون الحضارة قد خرجت بالكاد من الفوضى. يميز المرء فيها تمييزاً جذرياً بين بلده والبلاد الأجنبية وهذا لابد أن يولد كره الأجنبي وتصبح الدول الكبرى مرهوبة الجانب وتحتقر الدول الصغرى.

أما في المرحلة الثانية، مرحلة السلام التدريجي، لايعود الناس يميزون تمييزاً جذرياً إلا بين البلدان المتحضرة والشعوب البربرية. وتتوسع حدود الحضارة وتنمو الصداقة بين كافة الأمم وتتمتع الدول الصغرى بحقوق متساوية وترسل الممثلين عنها لدى الدول الكبرى.

ولكن في المرحلة الثالثة، مرحلة السلام العليا وتسمى مرحلة العدالة الكبرى، لايعود ثمة وجود للتمييزات، إذ يكون البرابرة قد تحضروا وحصلوا على حقوق مساوية لحقوق الشعوب الأخرى.

ومع أن العالم يتكون من أمم متقاربة وأمم قريبةمن بعضها البعض وأمم صغيرة وكبيرة، فإنه يشكل وحدة وتبلغ البشرية تطورها النهائي. وإليكم كيف يتصور كنفوشيوس المرحلة الثالثة تلك:

عندما يسود مبدأ العدالة الكبرى، لاتعود الأرض تشكل إلا جمهورية واحدة فقط، يُستدعى الناس أصحاب الموهبة والفضيلة والمعرفة الذين يعملون من أجل السلام